

إعادة التفكير في المجال المتوسطي: منافذ أركون نحو خلق الهوية المتوسطية المفقودة

Rethinking the Mediterranean Sphere: Arkoun's Ways Toward the Creation of the Lost Mediterranean Identity

عادل مبرك^{1*}، خالد بقاص²¹ جامعة الشهيد حمة لخضر-الوادي (الجزائر)، Mabrak-adel@univ-eloued.dz² جامعة الشهيد حمة لخضر-الوادي (الجزائر)، beggaskhaled.85@gmail.com

تاريخ النشر: 2024/12/18

تاريخ القبول: 2024/05/06

تاريخ الاستلام: 2024/09/04

ملخص:

إذا كان حوض البحر الأبيض المتوسط يحتضن بين ضفافه ثقافات متعددة فإنه يرسم خارطة محفورة بالصراعات بين القوى الطامحة للنفوذ والهيمنة. وقد كتب ألفريد ماهان الخبير الأمريكي في الاستراتيجية البحرية في أواخر القرن التاسع عشر يقول: جعلت الظروف البحر الأبيض المتوسط يلعب دورا تجاريا وعسكريا في تاريخ العالم أكبر مما لعبه أي سطح مائي آخر يتمتع بالحجم ذاته؛ فقد سعت أمة بعد أمة للسيطرة عليه، ولا يزال الصراع مستمرا وهذا التقييم يصعب تحديه؛ فحوض البحر الأبيض المتوسط ليس كتلة من الماء تتوسط قارات العالم القديم الثلاث كما تعكسه الكلمة إيتيمولوجيا، وإنما هو بحر تحيطه دول ذات هويات ومصالح مختلفة تماما. والمتوسط حسب إيف لاكوست، هو الإطار الذي تشغل فيه الظاهرة المتوسطية، إذ هي تنوع التفاعلات المباشرة عن طريق البحر بين مجموعة من الدول. وقد أفضت تجارب مأسسة هذه التفاعلات المحفوفة بثنائية التجاذب (التعاون) والتنافر (الصراع) إلى مسارات بلا أفق، في ضوء ما سبق، يحاول المشروع الأركوني استعادة مضامين التراث المتوسطي المشترك ضمن الإطار الواسع لأركيولوجيا المعنى المرتبطة بإرادة الهيمنة من أجل تفكيكها ويقترح منافذ نحو خلق الهوية المتوسطية المفقودة، ولقد مكنه هذا العطف من الانتقال الى البحث عن الأنسنة في السياقات المتوسطية بدل البحث عنها داخل السياقات الإسلامية، ليكون بذلك قد حقق خطوة أساسية نحو تفعيل حقيقي لما يسمى بحوار الأديان التوحيدية الثلاثة.

كلمات مفتاحية: محمد أركون؛ المجال المتوسطي؛ الهوية المتوسطية؛ حوار الأديان.

Abstract:

If the Mediterranean basin embraces multiple cultures between its banks, then it draws a map engraved with conflicts between forces aspiring for influence and hegemony. Alfred Mahan, an American expert on naval strategy in the late nineteenth century, wrote: Circumstances made the Mediterranean Sea play a greater commercial and military role in world history than any other water surface of the same size. Nation after nation has sought to control it, and the struggle continues, and this assessment is difficult to challenge; The basin of the Mediterranean Sea is not a mass of water between the three continents of the ancient world, as reflected in the word etymology, but rather a sea surrounded by countries with completely different identities and interests. The Mediterranean, according to Yves Lacoste, is the framework in which the Mediterranean phenomenon operates, as it is the diversity of direct interactions by sea between a group of countries. The experiences of institutionalizing these interactions fraught with the duality of attraction (cooperation) and repulsion (conflict) have led to paths without horizons. In light of the above, the Archonian project attempts to restore the contents of the common Mediterranean heritage within the broad framework of the archeology of meaning associated with the will of hegemony in order to dismantle it and proposes outlets towards the creation of identity. The lost Mediterranean, and this sympathy enabled him to move to the search for humanism in the Mediterranean contexts instead of searching for it within the Islamic contexts, thus achieving an essential step towards a real activation of the so-called dialogue of the three monotheistic religions .

Keywords: Mohamed Arkoun; the Mediterranean space; the Mediterranean identity; Interfaith dialogue.

1. مقدمة:

المتوسط *La méditerranée* - حسب أركون-، بيئة ضيقة وواسعة في الوقت نفسه، بيئة تأخذ في الضيق حين نردد صيغ الجدل القديم الذي دار حول الكتب المنزلة ونقع تحت تأثير الحقائق المطلقة (*Le choc des vérités absolues*). كان جان دانييل (1920-2020) قد ألف كتابا جميلا، شجاعا وتحريريا، تحت عنوان: "السجن اليهودي"، ينتقد فيه انغلاق اليهود على أنفسهم داخل الأساطير اللاهوتية القديمة، ويمكن أن نؤلف على منواله -يقول أركون- كتبنا بعناوين مماثلة على غرار السجن الإسلامي، السجن الكاثوليكي، السجن الأرثوذكسي، السجن البروتستانتي، السجن الإلحادي، السجن العلماني المتطرف لا العلماني المنفتح وما إلى ذلك. ولكي نفتح ثغرة في جدار التاريخ المسدود من أجل الخروج من هذه الإنغلاقات اللاهوتية، لابد من تفكيك هذه السياجات الدوغمائية التي تتخذ طابع القداسة لدى أتباع كل دين. سنحاول بداءة أن نحدد بشكل أفضل أسماء المتخصصين بالأمس واليوم؛ كان المؤرخ البلجيكي المعروف هنري بيرين قد افتتح تلك المجادلة العتيقة بين الإسلام والغرب منذ أن نشر كتابا عن "محمد وشارلمان" في العام 1937 ببروكسل، مثيرا فيه لتلك القطيعة القديمة التي فرضها الإسلام منذ توسعه الأول في حوض البحر الأبيض المتوسط، مؤديا إلى قطع الطرق القديمة للتبادل التجاري بين الدول الأوروبية وآسيا وميلاد مجتمع جديد داخل أوروبا قائم على الاكتفاء الذاتي، مجتمع سوف يعبر عن نفسه لاحقا من خلال أشكال موهنة من الإقطاعية، كما تمّ تطويع الكنيسة التي باركت شارلمان إمبراطورا مقدسا في العام 800. وقد عبر بيرين عن ذلك بقوله "إنه من غير محمد (ص) لم يكن من الممكن تصور شارلمان". وتأخذ بيئة المتوسط في الاتساع حين نجيل النظر في مصطلحات الإسلام، أوروبا والغرب بشكل نقدي ونعريها من ألبستها الايديولوجية السميكة. وهنا، نثير ذكرى تلك الشخصية الإنسانية الكبرى المتمثلة بالمفكر ريمون لول *Lul Raymond* (1232-

(1316)، الفيلسوف والمتصوف والتبجيلي المسيحي والشاعر والروائي وصاحب المؤلف الضخم الموسوم بـ "التأمل في الله"، الذي كتبه بالعربية قبل أن ينقله إلى اللاتينية والكاتالانية. وتعود أصالته الكبرى بالنسبة لعصره إلى قيامه بمقارنة حرة ومفتوحة بين أديان التوحيد الثلاثة من دون أن يفضل دينه بشكل مسبق على الدينين الآخرين كما كان يفعل حراس الأرثوذكسية المسيحية الذين كانوا منغلقيين أكثر من اللازم في يقينياتهم الدينية المطلقة، كما وصل به الأمر آنذاك في كتابه "الوثني المشرك والحكماء الثلاثة" إلى حد إيجاد توليفة بين الأديان الثلاثة وإنهاء الخصومة التاريخية. لقد استطاع ريمون لول أن يشكل نظامه الفكري في القرن الثالث عشر في ضوء مناظرة بجاية الشهيرة بينه وبين المفكرين المسلمين بطريقة ابتكارية. وهذا النظام الفكري يمكنه أن يغذي تفكيرنا حتى اليوم، إنه يمكن أن يكون -حسب أركون- نموذجا لنا في الوقت الحاضر بشرط أن نعرف كيف نتجاوزه بعد أن نتخذه كنقطة انطلاق أولى. كما ينبغي أن نوسع الإشكالية ونعمقها في ضوء رهانات المعنى وإرادات الهيمنة، إذ تحاول دوائر غربية تصوير الإسلام باعتباره قطبا جيو-سياسيا جديدا مهددا للغرب تماما كما تمّ فرض الصورة الاثنوجرافية الكاريكاتورية عن عالم الإسلام في الفترة الكولونيالية في مواجهة الايديولوجيا العلموية الظاهرة و"الإنسية الكونية" للمجتمعات المسيحية الأوروبية الغربية، وهنا يضرب أركون مثلا بمؤلف المستشرق البريطاني نورمان دانييل (1919-1992) "الإسلام والغرب، كيفية صنع صورة ما"، ولا ريب في أن مناضلي الحركات الأصولية يحاولون هم كذلك اكتساب المشروعية باسم الدين وأن يفرضوا إرادة القوة تحت لوائه. إن هذه الزحزحة الفكرية للمشروعية الدينية (التفكيك الداخلي) تقودنا إلى فضاء آخر للمشروعية العقلانية: العلمنة باعتبارها أولا وقبل كل شيء، إحدى مكتسبات وفتوحات الروح البشرية، وهي موقف للروح وهي تناضل من أجل امتلاك الحقيقة أو التوصل للحقيقة، إنها عمل لا ينتهي ولا يغلق. وهذا يفرض على الباحث أن يتجاوز كل الخصوصيات الثقافية والتاريخية وحتى الدينية. وهي تختلف عما أسماها أركون بـ "العلمانوية المناضلة" (Le laïcisme militant) التي تريد استبعاد الدين. لقد حاول

قادة دول في الضفة الشمالية-الغربية للمتوسط الإمساك بهذه اللحظة التاريخية وتحقيق اختراقات في عملية المصالحة بين أقطاب الإسلام وأوروبا والغرب ضمن توليفة الدالات الثلاث: "دين، دنيا، دولة" فيما يعرف بمسار برشلونة، بل إن الأمر وصل برئيس الحكومة الإسبانية زاباتيرو إلى حد تشكيل "تحالف الحضارات". ولكن، أي محصلة ختامية يمكن أن نستنتجها من عملية برشلونة للتقارب الأوروبي-العربي في ظل علاقة تتسم بعدم الندية وكيف السبيل إلى تفعيل حقيقي لما يسمى بحوار الأديان التوحيدية الثلاثة؟ يتساءل أركون.

2. معالم المشروع الفكري النقدي الأركوني:

يمكن القول أنّ حياة محمد أركون (1928-2010) ارتبطت في مجملها بهاجس المعرفة وإرادة التجاوز والبحث غير المنتهي عن المعنى والحقيقة (مسرحي، 2010، صفحة 6)، وهو ما عبر عنه في آخر أعماله "نحو تاريخ مقارن للأديان التوحيدية"، بقوله: "كل مرحلة من مراحل العمر هي عبارة عن قفزة أو خطوة إلى الأمام، وهذه القفزة لا تتحقق إلا من خلال القلق المرتبط بشكل وثيق بإرادة لا تتزعزع، وأقصد بها إرادة المعرفة، أو الجوع إلى الفهم أو الفضول العلمي..." (أركون، 2011، صفحة 375). وكان سؤاله الأكبر: كيف يمكن أن نكون مسلمين جديرين بلحظة الحداثة بشقيها المادي والعقلي وبتمظهراتها السياسية والعلمية والفنية؟، كيف يمكن إعادة ربط العالم الإسلامي بماضيه أثناء فترة ازدهاره في القرون الهجرية الخمسة الأولى وكيف يمكن ربطه في نفس الوقت بحاضر غيره المتطور والذي يزداد تطوراً يوماً بعد يوم منذ ثلاثة قرون أو أزيد؟ فكان المشروع الفكري الذي نظر له أركون تحت مسمى "نقد العقل الإسلامي" أو "الإسلاميات التطبيقية" الذي طرحه عبر أعماله العديدة واقعا بين قطبي التراث والحداثة؛ الموضوع هو التراث الإسلامي في كليته والمنهج هو أحدث المناهج المتبناة في العلوم الإنسانية والاجتماعية. لقد تمكن العقل الدوغمائي من سد كل المنافذ أمام محاولات التنوير حيث أغلق ما كان مفتوحاً وحوّل ما كان ضرورياً للتفكير فيه إلى ما لا

يمكن التفكير فيه ونتج عنه تغلب ما لم يُفكر فيه أثناء قرون طويلة على ما يجب التفكير والإبداع فيه. لقد نصب المقدس نفسه بما احتواه من نصوص وصيا على اللوغوس ولا أدل على ما نقوله من ثنائية "الحلال والحرام"، وهي في نظر أركون واحدة من الحلقات المشكلة للسياس الدوغمائي الذي يمارس رقابة حقيقية على العقل الإسلامي منذ فترة طويلة من الزمن (شريف، 2018، صفحة 306). وضع مأساوي لا مخرج منه إلا بابتكار ما يسميه أركون بالابستمولوجيا المبرمجة L'épistémologie programmatique التي يتولى أمرها الباحث-المفكر chercheur- penseur، والقادر في نهاية المطاف على بلورة ما يصفه أركون دائماً بـ "العقل الاستطلاعي المنبثق"، عقل يكافح في تصوره على كل الجبهات ويرفض أن ينحاز إلى أي جهة وإلى أي دين، ممتشقا ما اصطلح عليه "المنهاج التفكيكي الانقلابي الراديكالي"، والقائم بالأساس على ثلاثة لحظات هي: الاختراق والانزياح والتجاوز. وما يربط هذه المفاهيم/الأدوات هو اعتمادها المسبق على تصور معرفي يخترق الموضوع المائل أمامه، ليس بقصد الوقوف عنده، بل تحريكه وزحزحته عن مكانه لعل فيه إمكانية لتخطيه وتجاوزه. انطلق أركون من موقعين أساسيين للفكر النقدي إزاء الأحداث السياسية الجارية:

- الحدث الإسلامي، بما أن الاسلام يمثل الرأسمال الرمزي الأعظم للمشروعية في البلدان الاسلامية فإن الصراع على امتلاكه أو احتكاره كان عنيفا وضاريا (أركون، الإسلام، أوروبا، الغرب، رهانات المعنى وإرادات الهيمنة، 2001، صفحة 11). وفيما يسعى الخطاب الإسلامي إلى "تثريث التاريخ" يهدف أركون إلى ما أسماه جورج طرابيشي إلى "أرخنة التراث" (طرابيشي، 2001، صفحة 144)، من خلال دعوته إلى بلورة علم اجتهاد جديد أسماه "تيولوجيا-إناسية-منطقية للوحي" يُعنى بإعادة قراءة النصوص التأسيسية الأولى للإسلام وفق معطيات المنطق والأنثروبولوجيا المعاصرة (أركون، من الاجتهاد إلى نقد العقل الإسلامي، 1991، صفحة 133)، كل ذلك من أجل التوصل إلى تشكيل صورة أو فكرة عن نمط المعرفة الذي كان سائدا في المجتمعات البشرية التي انبثق فيها ما يدعى بالوحي، فقد اشتغلت مجتمعات الكتاب المسيحية كما اليهودية والإسلامية على قاعدة القراءات (التفاسير)

لظاهرة الوحي، وهنا تكمن أهمية البعد الألسني واللغوي للكتابات المقدسة (أركون، العلمنة والدين والإسلام والمسيحية والغرب، 1996، صفحة 28)، فإذا ما اعتمدنا موقف الروح هذا من أجل دراسة الإسلام ضمن سياق الحداثة، فإننا نستعيد عندئذ كل مضامين التراث الإسلامي ضمن الإطار الواسع لأركيولوجيا المعنى من أجل تفكيكه وتبيان سبب نشأته وتشكله على الطريقة التي نشأ بها وتشكل ولماذا مارس دوره كما مارسه في المجتمعات التي هيمنت فيها الظاهرة الإسلامية بدءاً من حدثين تدشينيين:

- الخطاب القرآني (الظاهرة القرآنية) وتجربة المدينة (الظاهرة الإسلامية) (أركون، العلمنة والدين والإسلام والمسيحية والغرب، 1996، ص ص 44-45). لذلك يدعوا أركون إلى وضع الإسلاميات الكلاسيكية (أو الاستشراق) على محك النقد والشك (أركون، العلمنة والدين والإسلام والمسيحية والغرب، 1996، ص ص 36-37).

- رهانات المعنى المرتبطة بإرادات الهيمنة للقارة الأوروبية أولاً، ثم لهذه القارة ذاتها بصفتها متضامنة مع ما تفضل أن تدعوه بالغرب ثانياً، وهي تدعوه ثالثاً لتهميش العالم المتوسطي ونبذه وعزله عن الغرب. إن أوروبا إذ تفعل ذلك، فإنها تقوّي أو تدعم تلك القطيعة الحاصلة بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط: أقصد بين الضفة الجنوبية-الشرقية/والضفة الشمالية-الغربية. وهكذا يصبح العالم العربي والإسلامي شرقاً، في حين أن الشرق الحقيقي يبتدئ فيما بعد أفغانستان، أي الهند والصين... (فالعالم العربي-الإسلامي غرب بالمعنى الجغرافي والحضاري وليس شرقاً كما نتوهم...). (أركون، الإسلام، أوروبا، الغرب، رهانات المعنى وإرادات الهيمنة، 2001، صفحة 7). يضاف إلى ذلك أن مصطلح "مجتمعات أم الكتاب/الكتاب" وليس "مصطلح أهل الكتاب المشحون لاهوتياً" يتيح لنا أن نكتشف نوعاً من التواصلية الوظيفية ذات الصبغة الإيديولوجية بين الإجرائية الدينية والإجرائية العلمانية الحديثة (أركون، الإسلام، أوروبا، الغرب، رهانات المعنى وإرادات الهيمنة، 2001، صفحة 22). وهذا ما يحيلنا إلى الموضوع المشترك في آخر ما صدر للمفكر الراحل محمد

أركون "حوض البحر المتوسط، منطقة لمجال تاريخي وحضاري"، التي يجري التفكير فيها بصيغة الصراع والضدية والندية بين الضفتين؛ ليس بسبب الاستعمار فحسب، بل أيضًا بسبب الرؤية والفكرة والأيدولوجيا (Arkoun, 2020). فالسائد اليوم في كلتا الضفتين من المتوسط أن كل دين يرفض الاعتراف من وجهة نظر عقدية بالأديان الأخرى، ولكن الأديان في الحقيقة تحيل كلها على دين واحد، فتجاوز وهم الحقيقة الدينية الحصرية لابد أن ينطلق من مقولة مركزية "الإنسان سابق عن مقولة الدين"، بما معناه أن كل البشر حاملون لمعنى الألوهية، فلقد كشف الله عن الحقائق التي تتجاوز اختلافاتهم، وهي حقائق مشتركة بين الأديان فهو الواحد الأحد في قلب المتعدد المختلف. لحظتها يصبح البشر والأديان مرآة الله التي في الأرض. من هنا يظهر اقتضاء التوجه نحو أنسنة الدين وإخراجه من بعده القبلي، فالجوهرية الإنسانية سابقة عن الحادية الدينية. من هذا المنظور، يقترح المشروع الأركوني منافذ نحو خلق الهوية المتوسطية المفقودة، ولقد مكنه هذا العطف من الانتقال الى البحث عن الأنسنة في السياقات المتوسطية بدل البحث عنها داخل السياقات الإسلامية، ليكون بذلك قد حقق خطوة أساسية نحو تفعيل حقيقي لما يسمى بحوار الأديان التوحيدية الثلاثة.

3. إعادة التفكير في المجال المتوسطي:

يقصد أركون بالمجال الجغرافي التاريخي المتوسطي، منطقة الحوض المتوسط وما يحيط بها، إذ يرى أن لها نطاقًا حضاريًا له خصوصيته، بالقياس إلى نطاقات حضارية أخرى كالنطاق الهندي مثلاً، الصيني أو الياباني... الخ، والعالم العربي الإسلامي ينتمي إلى النطاق المتوسطي الذي تنتمي إليه أوربا أيضًا، لأن الفكر الذي سيطر علينا وعلى الأوروبيين واحد: الديانات التوحيدية والفلسفة اليونانية (أركون، معارك من أجل الأنسنة في السياقات الإسلامية، 2001).

الواقع، أن ما دفع أركون إلى التفكير وإعادة التفكير في المتوسط كإطار حديث وجديد لإمكانية النهضة والتنمية في عصر التقنيات والعلوم هو وجود الخلفية الحضارية الكبرى

التي تمثلت في عصر التنوير العربي من القرن الثامن إلى القرن الثاني عشر، حيث سادت الفلسفة والشريعة وعلم الكلام والتفسير ومصطلح الحديث والفقه وأصوله، فضلاً عن الآداب والأخلاق كل ذلك في مستوى إنساني وعالمي، أي مفتوح، آفاقه مشرعة على العالم أجمع كما حدث في التجربة الأندلسية التي صارت تلجّ على ضرورة النظر من جديد في تاريخها من أجل ترتيب القواعد المعرفية وصياغة إشكالية تأخذ بكل معطيات حوض المتوسط كبؤرة مركزية لحضارة إسلامية تأتي لاحقاً على ما جاء في كتاب أركون ما قبل الأخير "عندما يستيقظ الإسلام" (Éveillera, 2018'Islam s'Arkoun, Quand I). والشئ المهم في منظور أركون هو الكشف عن المواقف والمعطيات والبنى المشتركة لدى كل المجال (الفضاء) الذي اخترقته تاريخياً ظاهرة الكتاب المقدس. ينبغي علينا أن نحاول فهم هذه الظاهرة (ظاهرة الكتاب) بصفاتها ظاهرة حضارية يمكن تحديدها على النحو التالي: هناك شيء كُتب هو الكتاب، وسوف يتعلق به المؤمنون باستمرار ويرجعون إليه، وبالتالي فعلينا أن نجد منهجية لتوضيح ظاهرة الكتاب على أن تكون مقبولة من قبل كل الطوائف المنتمية لليهودية والمسيحية والإسلام والبشر جميعهم. مهمة شاقة هي، لأن العقائد الموروثة لدى هذه الطوائف عنيدة، لكن ما يُعزينا هو أن أوساط الباحثين العلميين لا تنفك تتسع في كل أنحاء العالم (أركون، العلمنة والدين والإسلام والمسيحية والغرب، 1996، ص ص 81-82). يطرح أركون مشروعاً لإمكانية استعادة المجال المتوسطي من خلال معاودة تأسيس الوعي التاريخي بعيداً عن التمثل الأسطوري للتاريخ أو ما يسميه بـ "الوعي الساذج" الذي يُظهر نزوعاً حاداً نحو الحرب والغزو والهيمنة وتوزيع السيطرة بصور هستيرية، لأن الأطر السوسيولوجية للمعرفة قد تغيرت بشكل عميق بعد أن طرأت ثلاثة عوامل:

- الزيادة الديموغرافية الرهيبة والمفزعة وما تبعها من توسع عظيم للتعليم في المدارس ومن ثم انتشار أيديولوجيات سياسية ودينية؛

- انحسار الثقافة المدينية التقليدية التي حلت محلها البداوة وهجرات بشرية موسمية مستأصلة عن أي مرجعية ثقافية؛

- ضعف الذاكرة وانقطاعها عن رموز ثقافتها الشعبية التي تدرجت وتفككت بدورها وتحولت إلى ثقافة وديانة شعبية بأيديولوجية طاغية.

ومن أجل أن نقيم المصالحة وندشن العلاقة الفكرية والروحية والعلمية، وبالتالي السياسية بيننا وبينهم، ينبغي أن نقوم بترميم هذا الفضاء التاريخي المتوسطي. ولكن، هل يمكن سد الهوة بيننا وبينهم في المدى المنظور؟ بالطبع لا! ولكن يمكن أن نفهم على الأقل سبب هذه الهوة وكيفية معالجتها ومد جسور الحوار وربما إزالة أسباب سوء التفاهم بين صفتين متصارعتين. يمكن تقليص الهوة ولو قليلا ومن دون ذلك لا يمكن إقامة حوار بين الشمال والجنوب أو بين الصفتين المتصارعتين على مدار التاريخ (أركون، نحو تاريخ مقارن للأديان التوحيدية، 2011، ص ص. 246-247). لا يجب أن نكون كلمة "الحوار المسيحي-الإسلامي-..."، ليس لأنه ضد الحوار، ولكن لأن هذه الكلمة تخلع المشروعية المؤسسة على ذاتين اثنتين وعلى متخيلين جماعيين يدخلان في صدام مباشر على صعيد تصوراتهما الموروثة، ولهذا السبب فإنه يفضل التحدث عن ضرورة "التضامن"، أي عن تحمل مسؤولية كل تراثنا الدينية والثقافية بشكل متضامن، بدلا من التحدث عن الحوار الذي يحيلنا إلى مفهوم التسامح الكسول واللامبالي بالرهانات الجديدة لإنتاج المعنى وتحولاته (أركون، الإسلام، أوروبا، الغرب، رهانات المعنى وإرادات الهيمنة، 2001، ص ص. 54-55). يقدر أركون أن هناك أرضيتين مناسبتين من أجل تدعيم التضامن الأوروبي المتوسطي:

- أرضية التضامن السياسي المبني على احترام الحقوق الجماعية كحق الشعوب في تقرير مصيرها لأنفسها وحق الشعب في التنمية والتطور، وكل اعتراف بحق الشعوب يتطلب منا الإحساس بمسؤولية تطبيقه عمليا لا الاكتفاء بالنص عليه نظريا، ولكي يحصل هذا التضامن بالذات ينبغي أن يحصل تغير في العقلية أولا وتغير جريء في الاستراتيجيات السياسية والجهاز الثقافي والعقلي الموروث عن الماضي البعيد أو القريب؛

- هناك نوع ثان من التضامن لا يقل أهمية عن الأول، وهو يشترط التضامن الأول ويتحكم به، ألا وهو التضامن المتمثل باستعادة التراث الديني المشترك لمجتمعات الكتاب. ويقصد أركون بالاستعادة هنا الدراسة النقدية وإعادة النظر من خلال المنظور الواسع، بل وأوسع المنظورات (أركون، الإسلام، أوروبا، الغرب، رهانات المعنى وإرادات الهيمنة، 2001، ص.99-100).

يرى أركون أنه في ظل هذه القطيعة العقلية مع كل ما يجعل الفكر المعاصر يحيا ويتقدم تتمركز المأساة التي أصيب بها المغرب الكبير من قبل إيديولوجيا قوموية وظلامية ضيقة (أركون، الإسلام، أوروبا، الغرب، رهانات المعنى وإرادات الهيمنة، 2001، صفحة 159)، و"لهذا السبب نشرت في مجلة لوموند ديبلوماتيك ذلك المانيفست الذي أدعو فيه إلى التحرير الثاني للمغرب، وأهدف من هذا التحرير إلى وضع حد للانحرافات والأخطاء التي كرسها نظام الدولة-الوطن-الحزب خلال الثلاثين عاما الماضية، وهذا ما سيسمح أخيرا بحرية التعبير لما أدعوه بالمغرب المغربي: أي المغرب المتضامن في آن واحد مع العالم المتوسطي والعالم العربي والعالم الإفريقي" (أركون، الإسلام، أوروبا، الغرب، رهانات المعنى وإرادات الهيمنة، 2001، صفحة 131) يقول أركون.

لقد عانى الإسلام ولا يزال من اختزال رهيب لإمكاناته الحية وهذا كله ساعد على فشل كل محاولات الحوار بين الأديان والثقافات بين الدول ما بعد الكولونيالية ودول الغرب، إخفاق لم يتم تجاوزه لأن لا واحد من زعماء هاتين الضفتين -حسب أركون- يأخذ بعين الاعتبار أهمية تدريس سوسيولوجيا الفشل وسوسيولوجيا النجاح. إن النقد- الذاتي السابق عن كل تفاوض لا يزال مغيبا في كلا الضفتين من المتوسط. من هذا المنطلق يمكننا فقط الحديث عن إمكان الكشف عن هوية متوسطة، لكن المتوسط الذي يؤكد عليه أركون هو أكثر من متوسط، متوسط يقيم بداخل الجمع إذ من الممكن أن تتعايش فيه العديد من البلدان المتجاورة يميزها التعدد والتنوع لا الوحدة والتوحد.

إن نزوع الجانبين الأوروبي والعربي إلى البحث عن المجال المشترك بينهما قصد الاستثمار فيه بالقدر الذي يعود على الطرفين بالمنفعة والإيجاب يفرض عليهما -حسب أركون- فتح ورشات بحث ودراسة تكون مفتوحة باستمرار للمراجعة وإعادة التنقيح الدائم، وليس على ما هو سائد بين الأطراف السياسية والدبلوماسية التي ينتهي أثر عملها فور انتهاء أشغال الجلسة، على ما رأينا في مؤتمر برشلونة (ثنيو ، 2022) سنة 1995، والمعروف بخمسة زائد خمسة (EUROMED)، مبادرة فريدة وطموحة من نوعها وضعت أسس لعلاقات إقليمية جديدة حددها إعلان برشلونة في ثلاث سلال رئيسة مرتبطة ببعضها البعض:

- السلة السياسية: تحديد منطقة مشتركة للسلام والاستقرار عبر تعزيز الحوار السياسي والأمني في حوض البحر المتوسط؛

- السلة الاقتصادية: بناء منطقة للازدهار المشترك من خلال شراكة اقتصادية ومالية وتأسيس تدريجي لمنطقة تجارة حرة بحلول 2010؛

- السلة الثقافية: التقارب بين الشعوب من خلال شراكة ثقافية واجتماعية وبشرية تهدف لتشجيع التفاهم بين الثقافات والتبادل بين المجتمعات المدنية والتقارب بين مجتمعات البحر المتوسط.

4. خاتمة:

إنه لطالما تحدثوا عن مؤتمر برشلونة المتكرر الانعقاد على أنه سلسلة من الفرص الضائعة -يقول أركون-، في حين كان بالإمكان التوصل إلى نتيجة أكثر إيجابية في التعامل مع دول الشمال الغنية ودول الجنوب الفقيرة، لكن هذا الشيء لم يحصل للأسف الشديد، لذلك ينبغي أن نقيم محصلة ختامية ذاتية تتقاطع مع الأولى وتخص هذه المرة كل دولة أوروبية على حدى وكل الاتحاد الأوروبي بشكل عام بصفته فاعلا جديدا في التاريخ داخل الفضاء التاريخي والجيوبوليتيكي المتوسطي لكي ننتقل إلى سياسة أخرى في المنطقة، سياسة تحريرية أو محررة للجميع، أما الشرط الثاني للخروج من المأزق فيمكن في إشراك الولايات المتحدة في هذه الحركة العامة المتجهة نحو توليد تاريخ متضامن بين الشعوب والثقافات والرأسمالات الرمزية التي أصبحت مهجورة لا وارث

لها في كل الفضاء المتوسطي، في كتابي "من مناهن إلى بغداد"، وفي كتيبي وبحوثي الأخرى العديدة - يقول أركون-، كنت قد رسمت الخطوط العريضة والبرامج المحسوسة من أجل التسريع بحلول عهد هذا المسار الطويل لكل الشعوب المتصارعة مع بعضها البعض قديما وحديثا في حوض المتوسط "نحو تاريخ متضامن: نحو حوار بين الأديان التوحيدية". في الواقع، إن ما أدعوه بالتاريخ النقدي الاسترجاعي العميق للفضاء المتوسطي لم يُكتب حتى الآن، وهذا التاريخ بالذات يتركز على رهانات الحقيقة والمشروعية والقيم والثقافة الإنسانية ووظائف العقل وأنماط ممارسته لدوره والرؤية الأنثروبولوجية الفلسفية للوضع البشري، وهكذا خلا الجو تماما للقوى التي ندعوها اليوم بـ "المافيا السياسية-المصرفية" التي راحت تتحكم في مصير الشعوب كما تشتهي، في الوقت الذي راح الخطاب الدبلوماسي يغطي عليها بأسلوبه المخملي الناعم ويحتفل بالعلاقات الثنائية الممتازة بين الدول. لذلك، عندما أقول بأن فكرة التضامن بين الشعوب لا تزال هشة أو بدائية فإنني أستخدم كلمة أقل بكثير من مستوى الواقع، فالرؤية السياسية التي تُبَلِّغ مفهوم التضامن معدومة تماما اليوم، وفي ضوء ذلك يمكننا أن نفهم سبب تعلق الناس اليوم بالأديان التقليدية من أجل استعادة الأمل الأخروي بالنجاة، فالحالة صعبة إلى درجة أن الإنسان مضطر للتعلق بأي بارقة أمل من أجل الخلاص. لذلك فإنني لا أفهم عنجبية الصحفيين والمعلقين الأوروبيين الذين يستهزؤون بتعلق الجماهير المسلمة بدينها ولا يأخذون بعين الاعتبار تدهور الأوضاع في المجتمعات الإسلامية ومأساويته، إنهم يحاولون بشكل مستمر ومنتظم إعفاء مراكز القرار المحلية والدولية من مسؤوليتها في تَوَلَّد مثل هذه الأوضاع المختلفة تماما. ضمن هذا المنظور التاريخي الواسع والمنفتح ينبغي أن نموضع مشكلة الهجرة والعمال المغتربين المتواجدين في بلدان أوروبا الغربية، فهذه الهجرة نتيجة تاريخ أعى لا يرحم (أركون، الإسلام، أوروبا، الغرب، رهانات المعنى وإرادات الهيمنة، 2001، صفحة 162)، وهم يفعلون ذلك لتبرير كل أنواع الهوس السياسي تجاه العمال العرب المغتربين والإسلام (أركون، العلمنة والدين والإسلام والمسيحية والغرب، 1996، صفحة 19).

5. قائمة المراجع:

- Tarabishi, George, (2001), From Renaissance to Apostasy, Dar Al Saqi, Beirut.

- Sharif, Reda, (2018). Democracy or Secularism as a Space for Coexistence: A Dialogue between Arkoun and Al-Jabiri. Editor: Al-Zain Muhammad Shawqi, Algerian Association for Philosophical Studies, Algeria.
- Masrahi, Farah, (2010), The Intellectual Reference of Arkoun's Modernist Project, Its Origins and Limits: A Comparative Critical Analytical Study, Department of Philosophy, University of Hadj Lakhdar, Batna.
- Arkoun, Muhammad, (1991), From Ijtihad to Criticism of Islamic Reason, trans. Hashem Saleh, Dar Al Saqi, Beirut.
- Arkoun, Muhammad, (1996), Secularism, Religion, Islam, Christianity and the West, Volume 3, translated by: Hashem Saleh, Dar Al Saqi, Beirut.
- Arkoun, Muhammad, (2001), Islam, Europe, the West, Stakes of Meaning and Wills of Hegemony, Volume 2, translated by: Hashem Saleh, Dar Al Saqi, Beirut.
- Arkoun, Muhammad, (2001), Battles for Humanization in Islamic Contexts, translated by Hashem Saleh, Dar Al Saqi, Beirut.
- Arkoun, Muhammad, (2001), Towards a Comparative History of Monotheistic Religions, translated by Hashem Saleh, Dar Al Saqi, Beirut-London.
- Nourredine Thaniou. (01 09, 2022). Rethinking the Mediterranean. Al-Faisal: <https://www.alfaisalmag.com/?p=25139> (retrieved 02/01/2023)

طرابيشي، جورج، (2001)، من النهضة إلى الردة، دار الساقى، بيروت.
شريف، رضا، (2018). الديمقراطية أم العلمانية كفضاء للتعايش: حوار بين أركون والجابري. المحرر: الزين محمد شوقي، الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية، الجزائر.
مسرحي، فارح، (2010)، المرجعية الفكرية لمشروع أركون الحداثي، أصولها وحدودها: دراسة تحليلية نقدية مقارنة، قسم الفلسفة، جامعة الحاج لخضر، باتنة.
أركون، محمد، (1991)، من الاجتهاد إلى نقد العقل الإسلامي، تر: هاشم صالح، دار الساقى، بيروت.

أركون، محمد، (1996)، العلمنة والدين والإسلام والمسيحية والغرب، المجلد 3، تر: هاشم صالح، دار الساقى، بيروت.

أركون، محمد، (2001)، الإسلام، أوروبا، الغرب، رهانات المعنى وإرادات الهيمنة، المجلد 2، تر: هاشم صالح، دار الساقى، بيروت.

أركون، محمد، (2001)، معارك من أجل الأنسنة في السياقات الإسلامية، تر: هاشم صالح، دار الساقى، بيروت.

أركون، محمد، (2001)، نحو تاريخ مقارن للأديان التوحيدية، تر: هاشم صالح، دار الساقى، بيروت-لندن.
نور الدين ثنيو . (01 09 2022). إعادة التفكير في المجال المتوسطي. الفيصل:

<https://www.alfaisalmag.com/?p=25139> (تاريخ الاسترداد 2023/01/02)

Arkoun, Mohammed, (2018), Quand l'Islam s'éveillera, Albin Michel, Paris.

Arkoun, Mohammed, (2020), Repenser l'espace méditerranéen, éd. Frantz Fanon, Alger.